(١١) السياسة الأسبوعية ٩ من يونيو ١٩٢٨ [1]

أبو الهول وتمثال مختار

رأيت تمثال « مختار » كما لم يره غيرى . ولست أعنى أنى دخلت في جوفه أو صعدت إليه وركبت أبا هوله أونظرت إليه بأربع عيون ، ولكنها أعنى أنى لم أكد أقف أمامه وأهم بأن أرفع إليه عينى حتى أحسست طفلاً إلى جانبى يتأبط ذراعى كأنما كنت أعرفه قبل أن يولد ويقول لى إن صانعه « مختار محمد مختار » — فصرفت نظرى عن التمثال وانصرفت إلى هذا الذى اختار أن يكون صديقى دفعة واحدة وآثرنى على غيرى من الواقفين بصحبته وراقنى الموقف جداً وقلت له وأنا أفحصه بعينى وأبحث في وجهه عبثاً عن مخايل « النشالين » :

— سبحان الله . أصحيح ما تقول ؟

قال :

— وهل أنا أكذب عليك ؟ سل من شئت من الواقفين .

قلت وقد زاد اغتباطى بالموقف :

— أستغفر الله ، فما أعرفك كذبت قبل اليوم .

وخطر لى أن أستخلص من هذا الموقف كل ما فيه من متعة ، فقلت :

— معذرة ، ولكن صاحبه عبد الغفار ، هل ....

فقال بلهجة من يريد أن يدركنى لينقذنى :

— لا لا لا . مختار — مختار . محمد مختار .

— معذرة مرة أخرى — مختار — وهل هو صاحبه ؟ .

قال :

— نعم :

(١) نشر هذا المقال بعد ذلك فى كتاب المازني « صندوق الدنيا » .

فقلت :

— ومن أين اشتراه ؟

قال :

— اشتراه ؟ إنه هو الذى نحته .

قلت :

— وهل كان هنا جبل نحته منه ؟

فضحك ملء شدقيه ثم قال :

— جبل ؟ أى جبل ؟ ألست من أهل القاهرة ؟

قلت :

— كلا إنى من الريف . وهذا أول يوم لى في القاهرة .

فزال عجبه ولم يسرنى أن أراه يضحك منى أنا الذى يريد أن يضحك منه ، غير أنه لم يسعنى أن أتراجع بعد أن ذهبت معه إلى هذا المدى ورددت الحديث إلى مختار فسألته :

— وهل مختار هذا من قدماء المصريين ؟ أقول هل — معذرة إذا كنت غلطت في اسمه مرة أخرى — ولكن هل هو — أعنى صاحب التمثال — من قدماء المصريين ؟

فافتر فمه عن ابتسامة عطف على كتلة الجهل المجسد الذى كان يتأبطه واستل ذراعه فحمدت الله ووقف أمامى يتأملنى وقد شك في أمرى على ما أظن وتوقعت أنا أن أنفجر بالضحك المكتوم فيحدث بيننا مالا تحمد — أو مالا أحمد أنا على الأقل — عقباه .

فأشرت إلى اسم التمثال المكتوب بالخط الكوفي على القاعدة وسألته :

— ما هذا ؟

— قال : ألا تستطيع أن تقرأ ؟

قلت :

— أقرأ ؟ وهل هذه كتابة ؟

قال :

— نعم ، وماذا كنت تظنها ؟ إنها اسم التمثال — نهضة مصر :

قلت وتجهمت له :

— اسمع ياصاحبي . لا يليق بك أن تغشني .

فراح يقسم لي بالله أن الأمر كما يقول وينطق الاسم وهو يشير إلى الحروف بأصبعه . فقلت :

— وهل هذا خط عبد الغفار .... لا لا .... مختار . أليس كذلك ؟ إن خطه قبيح جداً . أن أبلد تلميذ في بلدتنا يكتب خيراً من هذا الخط ألف مرة .

وأحسبني حيرته وأدرت له رأسه بهذه الملاحظة فقد تلعثم وسرني جداً أن أشهد ارتباكه . وأقسمت لأمطرنه وابلاً من هذه المدهشات فلم أمهله ريثما يفكر في جواب بل رميته بسؤال آخر عن المصرية الواقفة إلى جانب أبي الهول .

— وهل تعرف هذه السيدة ؟

فرفع رأسه بسرعة وقال بلهفة :

— نعم ، لا إنها من التمثال .

فقلت :

— شيء جميل والله . وهل هذه أول مرة تقف فيها هذه السيدة هنا ؟

فحملق في وجهي ولم يفهم وضاعت النكتة ، واحتجت إلى سؤال آخر فقلت :

— وهل ستظل هذه السيدة واقفة هنا ؟

ففتح الله عليه بهذا :

— يا أخي هذه ليست سيدة . إنها حجر . تمثال . ألاتفهم ؟

فقلت : فهمت . فهمت . ولكن أتظل هكذا ؟ ألا تتعب ؟

فقال — ود ق كفًّا بكف : كيف تتعب ؟ ألم أقل لك إنها حجر . .

قلت : آه صحيح . وأي حيوان هذا الذي بجانبها ؟ .

قال : حيوان ؟ هذا أبو الهول ينهض .

قلت : وهل كان راقداً قبل الآن ؟

فخيل إلي أنه سيدعني ويجري ، ولكني كنت واهماً فقد ثبت وكان أشجع وأجلد مما ظننته وقال بصوت خفيض — وفي تؤدة :

اسمع ألم أقل لك إن اسم التمثال نهضة مصر ؟ أجبني .

فأطعته وأجبته أن نعم .

فقال : فهذا أبوالهول ينهض : يعني أن مصر تنهض . أفهمت الآن ؟

قلت : بودي أن أكون فهمت حتى لا أتعبك . ولكن أين مصر هنا ؟ .

قال : أبو الهول يا أخي .

قلت : وما هذه السيدة واقفة بجانبه ؟ .

قال : مصر .

قلت : هل هما مصران ؟

قال : سبحان الله العظيم . لا يا أخي .

قلت : لا تؤاخذني . ولكنك أفهمتني أن أبا الهول هو مصر وأن السيدة هي مصر وقد تعلمت أن واحداً وواحداً اثنان .

قال : لا لا ، إن هذا ليس حساباً ، إن هذه مصر تنهض أبا الهول .

قلت : أليس معنى ذلك أن مصر تنهض مصراً ؟

قال : لقد بدأت تفهم . هذا هو المعنى .

قلت : ولكني — ولاموأخذة — لم أفهم .

قال — وهو مغيظ : كيف لم تفهم ؟

وبدا لي أن حديثنا من الجد أكثر من المقدار الذي يحتمله هو فعدت إلى التباله وسألته :

— ولكني لاأرى الهرم هنا فهل نقله مختار؟

قال : نقله كيف ؟ أين أنت من الهرم ؟

قلت : هكذا قرأت في الكتب أن الهرم إلى جانبه أبو الهول فأين ذهب الهرم ؟

ويظهر أن نقل الهرم كان أكثر مما يطيق . فلوح بيده في وجهي وتمتم شيئاً لم أفهمه لأني شغلت بنظارتي التي هوت إلى الأرض وتكسرت عدستها وأولاني ظهره ومضى .

*

بعد هذا الحديث الذي استطيبته والذي شغلني عن التمثال ، وعن الوقوف به أتدبره كما ينبغي ، مضيت إلى أهرام الفراعنة ، فلما صرت عند أبي الهول وددت لو أن صاحبنا معي . إذن لسألته من صنع هذا ؟ أهو مختار أيضاً ؟

وتخيلته وهو يهز كتفيه أمامي — تحت أنفي — ويقول : لا يا أخي ، الفراعنة .

فأعود أسأله :

— وهل هم أحياء ؟

فيستعيذ بالله من هذا الجهل المطبق ويقول :

— أحياء كيف ؟ لقد ماتوا منذ آلاف من السنين .

فأبدى له العجب من أن يكونوا أمواتاً كل هذه الآلاف من السنين.

وأسأله :

— وبأى شيء ماتوا ؟

فيقول : لاأدرى . لايدرى أحد .

فأكر عليه بقولى :

— أتظن أنهم ماتوا بالطاعون ؟

فيقول : لاأدرى . ربما . من يدرى ؟

فألح عليه وأقول :

— أترجح أنهم ماتوا بالكوليرا ؟

فيقول بلهجة السأمان : ربما ، ربما ، قلت لك لاأدرى . فلا أدعه ولا أرحمه وأمول :

— أو لعلهم ماتوا حسرة ؟

فيقول — وقد انتفخت مساحره من فرط الضجر :

— ربما قلت لك ألف مرة لا أدرى . ماتوا والسلام .

فأزداد عليه شدة وأسأله :

— وآباء الفراعنة لايزالون أحياء ؟

فينقذنى بلفظة (مستحيل) وبعض حروفها بأسنانه ، فلايرد عنى هذا ، وأسأله عن أبى الهول وأين القاعدة وأين أبو الهول ؟

فيعود إلى كفيه يدق إحداهما بالأخرى وبعد أن يقضى مأربه ويرفه عن نفسه يبينهما لى فأقول :

— ما أوقره ، وأشد سكونه — وهل هو . . . هل هو ميت ؟ .

فيهيج برهة ثم يبين لى أنه حجر ، ولا يستطيع معى صبراً فيلوح بذراعه ويمضى عنى :

•

كلا ، تمثال مختار — « محمود » مختار — على براعته لاشيء حين يقيسه المرء إلى أبى الهول الفرعونى ، فإن على هذا الوجه من الكآبة والجد والتشوف والصبر والجلال والنبل ، ما ليس له شبه فى وجه الإنسان — وهو حجر ولكنه فيما يبدو للعين يفكر ، ينظر إلى الدنيا حوله ، ولكن نظرته تتخطاها إلى الفراغ الذى يلفها فى طياته ، وتتطلع إليه فيخيل إليك أنه يرد عينه إلى الماضى متجاوزاً محيط الزمن وأمواج أجياله وقرونه أومتراجعاً بها ومطبقاً بعضها على بعض حتى تعود وقد امتزجت وآضت مداً واحداً عند أفق القدم — نعم يفكر أبو الهول هذا ، في الحروب التى دارت أرجاؤها في الأزمنة الغابرة ، وفى الدول التى شهد قيامها وسقوطها ، وفى الأجيال التى رأى مولدها وراقب نهضتها ولاحظ فناءها ، وفي المسرات والأحزان والحياة والموت والرفعة والذلة التى دارت بها أربعة آلاف من السنين البطاء .

ودع ما أرادوا أن يرمزوا له به ، إن كانوا قد قصدوا إلى شيء من ذلك، فما أراه أنا إلا تجسيداً لتلك الملكة الإنسانية التى يسمونها « الذاكرة » في صورة بارزة محسوسة، وما من أحد عرف أى شعور تحركه فى النفس ذكرى الأيام السوالف ، وماذا ترسم على الوجه ، إلا وهو يستطيع أن يقرأ ذلك كله فى هاتين العينين اللتين يديرهما أبو الهول فيما عرفه وشهده قبل أن يولد التاريخ .

وهو لايقيس بالزمن السنين ، فإنها هنيهات ، ولا بالأجيال ، فإنها لحظات ، وإنما يقيسه بالدول التى قامت ثم تقوضت تحت عينه التى لا تتعب ولاتشيع من النظر ، ذلك أن فيه معنى من معانى الخلود فقد رأى منف وطيبة وشاهد مجدهما وعاش ليبصر الخراب يعفى عليهما ويوكل بهما اليوم والوطاويط ، ورأى أبناء إسرائيل يقومون ثم يسحقون ، والأغارقة ينهضون ثم يموتون ، ورومية تشاد ويرتمى ظلها على الأرض ثم تفنى ، والعرب يستفيضون في الدنيا أسرع من العاصفة ثم يذهبون في سبيل من غبر :

وكما أخذت عينه عظام مئات من الدولات ، كذلك ستأخذ قبور مئات أخرى قبل أن يفتر لحظها وتطبق الجفون .

والمرء ينظر إلى أبى الهول الساهد ويفكر في آلاف السنين التى قضاها هنا على حافة الصحراء فلا يستغرب ولايخالجه شيء من الشعور بالتنافي بين هذه الدهور الطويلة وبين مقامه هذا ، وذلك أن ربضته تشيع في النفس معنى الاستقرار التام . وقد أحسن القدماء بإيثار الربوض له فإنه جلسة مريحة تقترن فى الذهن بمعنى الاستمرار ؛ وليس كذلك « النهوض » كما هو مصور فى تمثال مختار ، والمرء خليق حين يعود إليه مرة بعد أخرى أن يحس أن لهذا الوضع ما بعده . . إما أن يثب إلى الأرض وإما أن

يعود إلى الجثوم والراحة والسهوم مرة أخرى ، أما البقاء هكذا يوماً بعد يوم وشهراً فى إثر شهر ، وعاماً في عقب عام ، فليس من السهل على العقل أن يأنس إليه ويقتنع به ، وقد تكون هذه مزية للتمثال وعسى أن يكون المقصود بها أنها نبوءة وأمل أونحو ذلك . ولست أعيب أو أنقد ، فما أعنى أكثر من أنى حين أنظر إلى التمثال لاأحس أنى قد رأيت كل شيء ، وقد أتوهم أنه سيثب عن القاعدة إلى الأرض .

وهذا الذى عليه أبو الهول الجديد إقعاء لا نهوض ، فإن الحيوان من البعير إلى الهرة ، حين يريد أن ينهض ، يقوم على رجليه الخلفيتين أولاً ثم على الأماميتين ، أماالقيام على رجليه الأماميتين فحسب ، فهذا هوالإقعاء ، وهو جلسة للحيوان يتخذها أحياناً ، وأكثر ما يراه الإنسان في الكلاب ، حين تقعد ناشرة آذانها راصدة عيونها . وأحسب أن مختاراً إنما آثر هذا الوضع لأن منظر أبى الهول يكون غريباً ثقيلاً إذا أنهضته على رجليه الخلفيتين ، كما ينبغى أن يفعل إذا كان يقصد إلى النهوض ، أولعل عذر مختار أن أبا الهول هذا خليط من الإنس والحيوان فله أن ينهض كيف يشاء حتى على رأسه .

وهذه الفتاة المنصوبة إلى جانب أبى الهول لاأفهم معناها ولا أدرى لمَ يقيمها المثال هناك ويضنيها بهذه الوقفة المتعبة ، ولو كنت أنا « مختاراً » لاستغنيت عنها جملة ولاجتزأت بأبى الهول وحده . لأنه إذا كان المراد الرمز إلى أن مصر تنهض فإن أبا الهول بمفرده حسب من شاء أن يرمز إلى ذلك . ولن يركب الجهل أحداً فيتوهم أن المراد به رومية أوقرطاجنة ، فى نهوضه وحده ما يكفى رمزاً لنهوض البلاد التى اقترن اسمه بتاريخها . زد على ذلك أن قيام الفتاة إلى جانبه تخليط . وذلك أنها على ما فهمت رمز لمصر الحديثة . وعلى هذا يكون أبو الهول عنواناً على مصر القديمة ، وكأن المعنى — على هذا — أن مصر الحديثة توقظ مصر القديمة أو أن مصر القديمة تنهض إلى جانب الحديثة وفى كنفها ، وكلا المعنيين مستحيل يرفضه العقل ولايسيغ معناه ، واضح من ذلك أن هناك — أوهنا على الأصح — مصر واحدة تاريخها سلسلة متصلة الحلقات ، وأنها كانت نائمة أو متفترة أو ما شئت غير ذلك ثم هى الآن تستيقظ أو تنفض عنها غبار القرون وتهم بالنهوض ، وهو معنى لايحتاج إلى هذه الفتاة التى تفسده ولاتؤيده .

ولست أستريح إلى وقفة الفتاة فإنها كالعصا ، ويمناها التى على رأس أبى الهول غريبة فى وضعها ، فإنه لايسندها فى الحقيقة إذا تأملتها إلا أصابعها ، أما سائر ذراعها فكالمعلق فى الهواء وإن كانت الشملة — أولا أدرى ماذا هى — تحجب هذا التعليق عن عين الناظر ، وهى لا تفعل بيمناها هذه أكثر من هذا الاستناد بأطراف الأصابع دون باطن الراح . ولا أدرى لماذا جعلها كذلك ولم يدعها تريح ذراعها ؟ ثم مامعنى

هذا الوضع وما الذى قصد به إليه أتراه أراد الإيقاظ ؟ فهذه ليست حركة إيقاظ وليس فى وجه الفتاة أدنى التفات إلى الذى بجانبها إنصح أنها تريد أن توقظه . أم ترى المراد أن مصر الجديدة تحسر عن وجهها وتبرز للعالم معتمدة على مصر القديمة ، فإن كان هذا هوالمقصود وأحر به أن يكون ، فإن رمز النهوض واليقظةهو الفتاة لاأبوالهول ولا داعى إذن لإقامة أبى الهول على رجليه مادام أن الناهضة سواه وأنه ليس إلاتكأة ووسيلة للرمز إلى الاتصال بالماضى ، وحينئذ يكون المعنى أتم وأقوم بأن يظل أبوالهول هذا رابضاً على العهد به والفتاة حاسرة إلى جانبه .

والخلاصة أن التمثال كان حقيقاً أن يكون أوفى بالغرض فيما أرى لو أن أبا الهول ظل رابضاً إلى جانب الفتاة المعتمدة عليه إشارة إلى اتكاء مصر الحديثة على ماضيها واعتزازها به واستيحائها إياه ، أو لو أن التمثال خلا من الفتاة . والأولى عندى أفضل اجتناباً للإقعاء ، وتفادياً من الوقوع في هذا الغلط . أما التمثال في شكله الحالى فلاأكتم القراء أنى أحس كأنى أحمله وقاعدته على ظهرى . ولايسوء مختاراً قولى هذا فإنه يعلم أنى من أجهل الناس بالفنون ، وأن ليس لى من الوسائل المعينة على حسن التقدير سوى رأس واحد وعينين اثنتين ليس إلا .

إبراهيم عبد القادر المازنى